

## وصايا ومواظ في مجلس الخليفة هارون الرشيد (ت193هـ)

### "دراسة فنية"

فاطمة السراحنة\*

#### ملخص

تعد المواظ والوصايا ضرباً من ضروب النثر العربي، فهي إحدى الذخائر التي وجدت قيمتها في الآداب القديمة، كما أنها قديمة الصلة بالحياة البشرية، بل كانت منذ باكورة الإنسانية، إذ تعكس القيم الأخلاقية الرفيعة، وتواكب وعي المجرب الذي طحن الأيام بفكره، واستناده على أساس متين، ورجاحة عقله الحصيف، وبصيرته بتدبير الأمور. وتأتي أهمية تلك الوصايا والمواظ حين تكون نتاج انفعال أصحابها للوضع القائم في حقبتهم الزمنية. وحين ترصد صورة العصر وثمره صلاحه وتقاه بوعاظه ونسائه وولاة أمره، فكانت تصدر من الخليفة هارون الرشيد حيناً، وحيناً آخر من الوعاظ وعابري السبيل حينما يسدون النصح والإرشاد لرأس الهرم السياسي. وقد كان الخليفة هارون الرشيد أهلاً لمثل تلك الوصايا والمواظ، انشد لها، واتسع صدره لكل من ألقاها، مما أضفى هيبةً ووقاراً على شخصه.

الكلمات الدالة: المواظ، الوصايا، الخليفة هارون الرشيد.

#### المقدمة

والأفكار في الوصايا والمواظ تعكس الواقع السياسي وعبويه وفساده، والواقع الاجتماعي ومسلكه ونفده، وتحكم بعض القوى في توزيع الموارد.

وهكذا فإن الدراسة تعنتي بالوصايا والمواظ التي كانت من الخليفة هارون الرشيد ومعظمها تنصف بأنها تروية، وتلك التي وُجّهت له ممن يتصفون بالورع والدين وعظمة الأخلاق، وما تضمنته تلك المواظ والوصايا من مضامين وأساليب فنية. وتعتمد الدراسة على منهج تضافر المعارف؛ فأفادت من الدراسات المختلفة: التاريخية، والاجتماعية، والنفسية، والسياسية، والثقافية، وتحليل الخطاب، أو أيّ منهج يعنى بالشكل والمضمون.

#### وصايا ومواظ في مجلس الخليفة هارون الرشيد

أولاً: مفهوم الوصية والموعظة لغةً واصطلاحاً:

اهتمّ العرب بفن الوصايا والمواظ؛ لما لهما من تأثير واضح على مجريات الحياة، وتقديم خبرة من اعتركها وعاشها، فأفاد وتعلم، فهما نابعتان من صميم التجارب، وتمثلان الطبيعة العربية الصافية، ببساطتها وعمقها، في كلمات تتسم في مجملها بالإيجاز، والانسجام، والتناغم، والذوق الرفيع، بعيداً عن تعقيدات التكلف والتصنع، كما فيهما مراعاة لمصالح الجميع، وهما تدعوان في الغالب إلى الخير ومكارم الأخلاق

تُعدّ الوصايا والمواظ نسقاً ثقافياً قاراً في نسيج الفكر العربي، وتختلف في أغراضها وأساليبها حسب منشئها وهدفها وغايتها.

لقد واجه الخليفة هارون الرشيد قضايا الحياة وإشكالاتها وتناقضاتها، وهو كما روي لنا، لأن هذا يحتاج إلى حكم ويحتاج لدليل: بين انغماس في اللذة وإغراق في التمسك والتوبة والنصيحة وسماعها، يُصور أحياناً بصورة الخليفة المسرف في الترف والملذات، ويظهر أحياناً بصورة الخليفة الورع المتدين الذي تسيل عبراته عند سماع الموعظة، والبطل المجاهد الذي أمضى معظم حياته بين حج وغزو، فكان يحج عاماً ويغزو عاماً وأنه أول خليفة عباسي قاد الغزو بنفسه" (العبادي، 1972، ص80).

تهدف هذه الدراسة إلى الاهتمام بتلك المواظ والوصايا الصادرة من الخليفة هارون الرشيد، وتلك التي وُجّهت إليه لإرشاده وتصويب مساره، ومعرفة القضايا التي شغلته، وشغلت من حوله.

\* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة الهاشمية، الأردن. تاريخ استلام البحث 2016/02/08، وتاريخ قبوله 2016/04/24.

مشققاتها مكانة جلييلة في دلالتها المعجمية، فلا تستغني أمة في الأرض عنها وتأخذ منزلة كريمة. (النحوي، 1998، 45). فالوَعظُ في معجم لسان العرب" والعِظَةُ والعِظَةُ والمَوْعِظَةُ النَّصْحُ والتذكير بالعواقب، قال ابن سيده هو تذكيرك للإنسان بما يُليِّن قلبه من ثواب وعقاب، وفي الحديث لأَجْعَلَنَّكَ عِظَةً أَيْ مَوْعِظَةً وعبرة لغيرك، والهاء فيه عوض من الواو المحذوفة، وفي التنزيل فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَمْ يَجِئْ بِعَلَامَةِ النَّبِيِّ؛ لأنه غير حقيقي؛ أو لأن الموعظة في معنى الوَعظ حتى كأنه قال، فمن جاءه وعظ من ربه وقد وَعَظَهُ وَعَظًا وَعِظَةً وَاتَّعَظَ هو قَبْلَ الموعظة حين يُذكر الخبر ونحوه، وفي الحديث وعلى رأس السَّراطِ واعِظُ اللهُ في قلب كل مسلم يعني حُجَّجَهُ التي تَنْهَاهُ عن الدُّخُولِ فيما منعه اللهُ منه وحرَّمه عليه والبصائر التي جعلها فيه..." (ابن منظور، 1993، مادة وعظ).

والمواظب تنقسم، أيضاً، إلى مواظب عامة تلقى في المساجد والمحافل العامة التي تعالج قضايا عامة ويحضرها جمهور من الناس، ومواظب خاصة التي تقال في الدور والقصور، وتعالج - في الغالب - قضايا ظلم الأقوياء للضعفاء، وتحيفهم على الآخرين وإسرافهم على أنفسهم، ولهذا يكثر في المواظب الخاصة الحديث عن العدل والحث عليه، والزجر عن الظلم واقتراف المعاصي" (صالح، 1994، ص 29).

في حين أن المواظب في المعجم الوسيط "(بِعِظُهُ) وَعَظًا، وَعِظَةٌ: نصحه وذكره بالعواقب. وأمره بالطاعة ووصاه بها. (اتَّعَظَ): قَبْلَ الموعظة وائتمر وكف نفسه. يقال: وعظه فاتَّعَظَ. (المَوْعِظَةُ): ما يوعظ به من قول من فعل. (ج) مواظب. (الوَاعِظُ): من ينصح ويذكر ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. (ج) وُعَاظُ" (أنيس وآخرون، 2، 1972/ص 1043).

#### ثانياً: الخليفة هارون الرشيد وعلماء عصره:

تعدُّ شخصية الخليفة هارون الرشيد من الشخصيات المقترى عليها تاريخياً؛ ذلك أنها كانت مثار جدل واضح ومختلف حولها، والمصادر العربية أفاضت في الكلام عنه؛ فأخبره تزخر بامتزاج حقائق التاريخ بخيال النص. (أبو خليل، 1996، ص 202)، إلا أن كتب التاريخ تجمع على أجواء الرعاية والعناية لعلماء عصره، وما أفرزته تلك الأجواء من حركة علمية شهد لها، وحركة ترجمة واسعة النطاق، فقد امتلأت بغداد بكتب الحكمة والطب والعلوم المختلفة من عمورية وسائر بلاد الروم (ابن النديم، بدون تاريخ، ص 120)، كما رعى حركة التأليف، وهو في ذلك لم يكن من المجددين بل سار على نهج خلفاء بني العباس، وقد بالغ في مكافأة الأدباء، وإكرامهم وإبعادهم عن إراقة ماء وجوههم في الإلحاح في

وأساسهما تقوى الله والعودة إليه بشكل دائم، فأهم ما يميزهما كونهما ثمرة مشاهدات الإنسان وملاحظاته وتجاربه الخاصة.

وتعدّ الوصايا التي احتفظ بها التاريخ عميقة الجذور في الحياة العربية الأصيلة، و"سجلاً صادقاً لأنماط العلاقات الأسرية والاجتماعية، وانعكاساً حياً لتطور القيم والأفكار، وقرائن صادقة للمواقف التي وجهت هذه الوصايا وحكمت أسلوبها وأهدافها" (الفريخ، 1988، ص 17).

وتجمع المعاجم العربية في معنى الوصية "أن الوصية ما أوصيت به، من نصيحة ومال؛ وسميت بذلك لأنها تصدر في الغالب من الإنسان في حالة اقترابه من نهاية عمره، واستشرافه بعين بصيرته الحياة الأخرى، ورغبته أن يصف تجربته وثمرته عمره إلى الموصي له في كلام صادر من أعماق القلب يفوح نقاءً وحكمة ونصيحة" (المصرف، 7، 1999-8).

فالوصية عند ابن منظور: "ما أوصيت به، وسميت وصيةً لاتصالها بأمر المتوفى"، (ابن منظور، 1993، مادة وصي) في حين نجد أن الوصية في المعجم الوسيط: "قول فيه دعاء إلى صلاح ونهي عن فساد" (أنيس، 1972، ج 2/ص 1039). والوصية" ما يوصي به شخص لشخص آخر، وغالبا ما يكون قريباً أو صديقاً وذلك حين السفر أو الزواج أو الموت أو ما شابه ذلك" (مناح، 1981، ص 107).

والوصايا قسمان: خاصة وعامة؛ والخاصة منها موجهة إلى شخص معين، وتتضمن توجيه النظر إلى محاسن الأخلاق، في حين تكون العامة موجهة إلى فئة من الناس أو إلى الناس بوجه عام، وتتضمن نصائح دينية أو دنيوية (صالح، 1994، ص 34)، ويذكر أسامة بن منقذ أن الوصايا وصيتان: "وصية الأحياء للأحياء وهي أدب، وأمر بالمعروف ونهي عن منكر، وتحذير من زلل، وتبصرة بعمل صالح، ووصية الأموات للأحياء عند الموت بحق يجب أدائه ودين يجب عليهم قضاؤه" (ابن منقذ، 1987، ص 1).

وقد عُرفت الوصايا منذ باكورة الإنسان، فهي قديمة قدم التاريخ، عميقة الجذور في حياة الإنسان العربي، غذّاه الإسلام بمفاهيمه الخلقية، وبت فيها الطهر والنقاء والرفعة، إنها حاجة من حاجات الحياة الاجتماعية وروابطها وضرورة من ضروراتها في جميع ميادينها، سواء أكان ذلك في حياة الأسرة والأرحام، أم الإدارة ومؤسساتها، أو الحكم والدولة وامتدادها... ولو تتبعنا أصولها ومصادرها الحقيقية لوجدنا أنها ممتدة مع امتداد رسالة الأنبياء والمرسلين في الأرض، ومع امتداد الفطرة السوية" (النحوي، 1998، ص 168).

أما الموعظة فإن المعاجم القديمة تجمع على ارتباطها بالنصح والتذكير بالعواقب، وقد احتلت هذه الكلمة بجميع

السؤال، والحاجة إلى الآخرين.

وقد أكدت المصادر على اختلافها عناية هذا الخليفة بكل عالم على اختلاف تخصصه: "إنه لم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء، والفقهاء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد" (ابن الطقطقي، دت، ص169).

وتذكر الروايات مظاهر عناية الخليفة هارون الرشيد وإجلاله أهل العلم دون مرء أو مراهنة، ومن ذلك ما روي عن صبه الماء على يدي أبي معاوية الضرير المعلم، مما جعل الضرير يقول (لافتاً إلى اهتمامه بالعلماء على اختلافهم): "يا أمير المؤمنين، إن ما أكرمت العلم وأجلتته، فأجلك الله وأكرمك، كما أكرمت العلم وأهله" (البغدادي، 1931، 14/8).

ولعل ما ذكره ابن المبارك لمؤثر على اجتذاب الرشيد أيضاً للأدباء والعلماء والفقهاء والمترجمين، يقول: "فما رأيت عالماً ولا قارئاً للقرآن ولا سابقاً للخيرات، ولا حافظاً للحرمان في أيام، بعد أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيام الخلفاء والصحابية، أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه: كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن إحدى عشرة سنة...". (ابن قتيبة، 1909، 165/2).

ومما يؤكد سعة صدره وسمو أخلاقه في التقرب لأهل العلم ما أكدته الرواية الآتية على لسان القاضي الفاضل "ما أعلم لملك رحلة قط في طلب العلم إلا للرشيد فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله" (السيوطي، 2013، 469)، و"لما بلغه موت عبدالله بن المبارك حزن عليه وجلس للجزاء فعزاه الأكابر" (السيوطي، 2013، 458).

ومما يظهر أخلاقه في التعامل مع الفقهاء وأهل العلم أنه كان، إذا حج، أحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، فإذا لم يحج، أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابعة، والكسوة الظاهرة" (ابن الأثير، 1995، 356/5، البغدادي، 7، 14/1931).

ومن هنا لا يمكن أن يقع هذا الأمر ضمن الإدعاء أو الشك أو المداهنة فيما كان يصنعه الخليفة هارون الرشيد؛ لأن الأخلاق الرفيعة تظهر في تقدير أهل العلم وهذا الاهتمام مرآة تعكس نضارة وجه العصر وصحته. وهكذا فقد كان لأجواء البذخ والعلم والتقدم، والدسائس والمؤامرات دور في تشكيل شخصية الخليفة هارون الرشيد (العبادي، 1972، ص80).

**ثالثاً: الوصايا التربوية في مجالس الخليفة هارون الرشيد:**

**أولاً:** وصية تربوية من الخليفة هارون الرشيد لمؤدب ولده: قال الخليفة هارون الرشيد لمؤدب ولده:

"يا أحمز، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمره قلبه، فصير يدك عليه مبسوطةً وطاعته لك واجبة. فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين اقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذته بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتتم منها فائدة تُفيده إياها، من غير أن تحزنه به فتميت ذهنه، ولا تُمعن في مسامحته فيستجلي الفراغ ويألفه، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهاً فعليك بالشدّة والغلظة" (ابن خلدون، 1993، ص633).

تصور الوصية التي قدمها هارون الرشيد لأحد مؤدبي أبنائه وهو عبدالله بن المبارك (181هـ)، الحسّ الإنساني الرفيع، إذ تكتمل العاطفة مع الفكر، فالخليفة ببعد نظره حريص على مصلحة الأمة، ولا يكون هذا الأمر إلا بحرصه على مصلحة خليفة المستقبل.

وتشكّل العاطفة (عاطفة الأبوة) محوراً مهماً محركاً، وركيزة أساسية في التعبير عما يهجس به الخليفة في حركة النظر إلى المستقبل، فهو ومع إنشغاله يفرغ الوقت لإسداء النصيحة لمؤدب ابنه الذي يقوم برعايته والاهتمام بأمره، مما يعكس خبرة الخليفة وعمق الرؤية وعظيم إحساسه، كما تتجلى للمسة الصداقة في إشارات منها، يقول: "إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمره قلبه، فصير يدك عليه مبسوطةً، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين" (ابن خلدون، 1993، 633).

والتزمت الوصية بالجديّة في الطرح؛ ولعل السبب يعود في ذلك إلى جدية الموضوع الذي طرّقه، كما أن وصيته تتبع من أعماق قلب أب مخلص لابنه؛ مما يدل على الود الخالص الذي يكنه الخليفة لابنه فلذة كبده، وهذه الافتتاحية تشتمل على مغزى نفسي فيها تركيز عاطفي لعلاقة الأب وابنه وإن كان الابن غائباً، إنها تتحرك في أفق الأب والابن الذي سيأخذ مكانه، ويستعين بكل الأدوات الإشارية التي تحقق مبتغاه في لفت نظر الموصى إليه من أدوات نداء إلى جمل طلبية ممثلة بالأمر وصولاً إلى الصورة التعبيرية وإن كانت قليلة فإنها تتسجم وحجم الوصايا التي تتسم بإيجازها ومخاطبتها للعقل.

ولا غرو أن حدث الرهبة والانفعال النفسي العميق الذي يكتنف عالم السلطنة قد يتشكل عند المؤدب في تواصل الخليفة معه، إلا أن الخليفة يتخطى بكلامه عتبة الخوف التي يستشعرها المؤدب في حضرته.

ويتمثل في الوصية: خليفة الحاضر (الوالد)، وخليفة

عن رجل سياسة وحكمة.

**ثانياً: وصية أخرى للخليفة هارون الرشيد:**

"يا عبد الملك، أنت أعلم منا، ونحن أَعْلَمُ مِنْكَ، لا نُعَلِّمُنَا في مَلَأٍ ولا تُسْرِعُ في تذكيرنا في خلاءٍ، واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال، فإذا بلغت من الجواب حد الاستحقاق، فلا ترد إلا أن يستدعي ذلك منك، وانظر ما هو أَلْفُ في التأديب، وأنصف في التعليم، وبلغ بأوجز غاية التقويم" (الموردي، 1978، ص69)

تنهض الوصية على مجموعة من المفارقات والإغزالات، وبخاصة أنها موجهة من رأس الهرم السياسي إلى أحد رجال العلم، كما تتضمن إشارات تنهيية بيثها الخليفة بوحي واضح، فالسلطة السياسية تسعى إلى تقديم فلسفتها في سياق علاقتها بأهل العلم الذين يتمتعون باحترام الجميع، فالصراع بينهما (سلطة القوة، والمال/ وسلطة العلم، والقلم) يكاد يكون خفياً ولكنه قائم، فالتعليم وإسداء النصيحة كما يرى الخليفة فضيلة تقوم على الصدق والاستسلام للخليفة والطاعة له، فسلطة العلم تقابل سلطة المال، وسلطة الجاه والجبروت تقابل سلطة العقل، إلا أن بعد النظر، وحسن التصرف يبدو واضحاً ولا تتقاضى في هذا، يقول:

"يا عبد الملك، أنت أعلم منا، ونحن أَعْلَمُ مِنْكَ،..." (الموردي، 1978، ص69)

ويدرك الخليفة الصراع الخفي على السلطة من الآخرين، فالعصر عصر دسائس ومؤامرات وفتن، ويجب أن يظهر الخليفة قوياً في مجلسه؛ حتى لا تهتز صورته في نظر جلسائه ومن يحيطون به، وحتى لا تنعكس النتائج سلبية على الموصى إليه، ولذلك لا بد من أدوات ثقافية تلازم الخطاب في حضرة الخليفة؛ فلا يجوز الإساءة إلى الخليفة بمبادرته بالسؤال أو الخوض معه في أمور قد تظهره عاجزاً ضعيفاً، يقول مسدياً النصيحة:

"لا نُعَلِّمُنَا في مَلَأٍ، ولا تُسْرِعُ إلى تذكيرنا في خلاءٍ، واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال..." (الموردي، 1978، ص69).

إن صورة السلطة تكشف عن ذات تسيطر على المكان والزمان بأفعالها وتحركاتها، فهي تملي النسق الخاص بطبيعة خطابها وحضورها المميز بين العلماء، فيرتكن المعلم على أصول أساسها التهذيب والاحترام، واختيار الوقت المناسب لإسداء النصيحة وتقديم المعلومة، ويتكئ كلامه على الإيجاز والإيحاء والتكثيف، فوقت الخليفة موزع، ولا يشكو الفراغ، يقول الخليفة مستدركاً:

"فإذا بلغت من الجواب حد الاستحقاق، فلا ترد إلا أن يستدعي ذلك منك، وانظر ما هو أَلْفُ في التأديب، وأنصف

المستقبل (الابن)، والمعلم، وهكذا فالمؤدب وولي الأمر والمؤدب يشكلون تكاملاً واضحاً في أساليب التربية ضمن المؤسسة التربوية.

ويمكن القول: إن الوصية حرصت على العناية بالحركة الثقافية والفكرية، وما تظلم به من علوم العصر؛ فقرة القرآن وعلوم الحديث رأس هرم تلك العلوم، كما أن معرفة التاريخ والأخبار ورواية الشعر تمثل مطلباً مهماً وملحاً، فالشعر وسيلة تواصل والتقاء مع الجماهير في الخطابة، ووسيلة الرد على الأعداء في الرسالة، فالاحتفاظ بالموروث الفكري والثقافي القديم يعدّ أمراً ضرورياً، يقول: "اقرأ القرآن، وعرفه الأخبار، وروّه الشعر، وعلمه السنن،..." (ابن خلدون، 1993، ص633).

وتكشف العلوم التي ذكرها الخليفة موسوعية علماء ذلك الزمان، كما توجي بما يلم به المؤدب من كفاية علمية واضحة تؤهله، كما أن اعتناء الخليفة بذكر هذه العلوم يبين حرصه على ابنه، فتلك العلوم بتحصيلها قادرة على حمايته حتى في أخطر المواقف، فالخليفة لا يستهين بأي علم لأهمية هذه العلوم في إسعاد الراعي والرعية.

وفي إطار تصوير الخليفة هارون الرشيد لموضوعة العلوم التي لابد من الاهتمام بها، يسعى جاداً إلى تأكيد منطق الكلام، وطرق حديث أبناء الخلفاء حينما يواجهون الناس، فكلّ مقام مقال، ومن هنا لا بد أن يكون كلامه في الناس قوياً، يجلب سمعهم، ويؤثر في نفوسهم ويستميلهم، يقول الخليفة هارون الرشيد: "... وبصره مواقع الكلام ويدنه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته" (ابن خلدون، 1993، ص633).

ولعلّ تعليم الخليفة القادم منطق الكلام، والحجة القوية من الضرورة لمواجهة خصوم الدولة ومؤيديها، فهو بهذا يحفظ للسلطة ديمومتها بعيداً عن الصراع مع الآخرين.

وتندرج سياسة الرشيد إلى معاملة ذوي الأحساب والأشراف، ومن لهم منزلة رفيعة في المجتمع، وهم أشراف بني هاشم، فهم في مكانة تجعلهم يحظون بمعاملة مهمة من الحاكم، فمضاهم ذو صلة باستتاب الأمن، وعدم إثارة الفتن والمشاكل، والتعويل على مشورتهم ومؤازرتهم، وكذلك الاهتمام بقيادة الجند، يقول الخليفة هارون الرشيد مؤيداً: "وخذّه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا إليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه،..." (ابن خلدون، 1993، ص633).

أما عن بنائها اللغوي؛ فعباراتها تنصف بالمرونة والسلاسة، كما أن الموضوع يجعلها تتباعد عن التكلف والتعقيد، ويظهر السجع في هذه الوصية عفويّاً؛ مما أضفى موسيقى، ووظفت الجمل ذات القدرة على التحريك والتأثير؛ فجنحت للنهي والأمر، ومستوى الانتقاء اللفظي ينم على أن الوصية تصدر

في التّعليم، وبلّغ بأوجز لفظٍ غايةً التقويم" (الموردي، 1978، ص69).

وهكذا فإن هذه الوصية تربوية محضة يظهر الخليفة مسيطراً، كما تتكئ على الوضوح والإيجاز والدقة، ورقة الألفاظ، وسهولة التعابير، فهي ضمن الوصايا الخاصة إلا إن الاستفادة منها عامة، كما توجه المؤدب توجيهاً تربوياً يصلح للتعامل معها بشكل دائم؛ ولا يخفى حسن استخدام الحنكة السياسية، ومراعاة الحالة النفسية؛ فهو عادة ما يستخدم أسلوب النداء مع الشخصيات التي يتوجه إليها؛ حتى يحقق الاهتمام والقبول.

**ثالثاً: وصية ثالثة للخليفة هارون الرشيد يوصي الكسائي (189هـ)**

"يا علي بن حمزة، قد أحلّناك المحلّ الذي لم تكن تتبلّغهُ همتك، فرّونا من الأشعارِ أعفها، ومن الأحاديثِ أجمعها لمحاسنِ الأخلاق، وذاكرنا بأدابِ الفُرسِ والهنْد، ولا تُسرّعْ علينا الرّدّ في ملأ، ولا تتركْ تنقيفاً في خلاء" (الدليمي، 134/1987، 3).

تقدم الوصية كما يتضح خلاصة مركزة لما اكتسبه الخليفة من خبرة في مجال الثقافة وتقديمها للنخبة المثقفة، فقد شرع بتبيين المسائل التي تحكم الرابطة والألفة بين الراعي والرعية بما يمكنه من الولوج إلى قلوبهم؛ فالرجال الذين يحيطون به يمثلون القوة والقدرة، والوصايا السابقة أوضح فيها الصيغ المثلى التي يركز عليها أديب العصر في مجالس الخلفاء بعامة، ومجلس الخليفة هارون الرشيد بخاصة، فالخليفة يعرّف بالأنساق المعرفية المهمة في الأدب والسياسة؛ فأعفّ الأشعار باب يطرق، والتذكير الدائم بالأخلاق ومحاسنها من الأمور التي لا بد من ذكرها، وبما أن العصر عصر الامتزاج بالأجناس الأخرى، فلم يكن العرب مبتعدين عن تلك الأمم، وهكذا فقد حفل العصر العباسي بالمتغيرات؛ فكان لا بد من مذاكرة علوم الهند باختلافها من فلك وقصص وحساب وحكمة، وعلوم الفرس التي تختص بنظم الملك وغيرها من العلوم.

فكان من الطبيعي التنبيه إلى التطور الواضح متمثلاً بالانفتاح على الآخر، ودور هؤلاء في حركة التغيير على المجتمعات، وعلى حركة الثقافة وتطور العلوم.

وإذا كانت السلطة هنا تفتح من معين الثقافة العربية والإسلامية الثر، فإنه يضع ذلك أيضاً بقصدية واضحة وطلب ببراعة توظيف الشعر، وبذلك يقيم الشاعر جسراً قوياً وحبلاً متيناً بالشعر الذي يدعو إلى الفضيلة والأخلاق.

وهكذا فإن الملاحظ أن حاشية الخليفة هارون الرشيد من ذوي العقول النابهة والراجحة والعلماء والفقهاء، كما أن القاسم

المشترك لهذه الوصايا تظهر في توجيهها إلى ثلثة من العلماء المؤدبين، " وقد أدى إلى ظهور هذا النوع من الوصايا هو التفكير في إعداد ولاية العهد إعداداً كاملاً يؤهلهم لتحمل ما ينتظرهم من مسؤولية عند تولية العهد" (الفريخ، 1988، ص93)

كما أن تلك الوصايا التربوية تحرص على جملة من القيم في العلاقات الإنسانية، وهذه الوصايا أيضاً أشبه بدستور في علاقة العلماء بالخلفاء، وهو منهج متكامل شمل جوانب من شخصية الحاكم القيادي الذي يلتفت لدقائق الأمور.

والملاحظ كذلك المفتتح باستخدام أسلوب النداء، ولهذا الأسلوب دوره الذي يتركه على نفسية المستمع في الإيقاظ والاتفات لقيمة الموقف وأهميته.

كما أن الجمل تراوحت بين الخبرية والإنشائية، والإنشائية جاءت لتحدث عن المواقف ضمن الأوامر والنواهي (فرونا، وذاكرنا، ولا تسرع، ولا تترك)؛ وهي تتسجم وروح السلطة الأمرة النهائية.

**رابعاً: نظرة في وصايا بعض الوعاظ للخليفة هارون الرشيد أولاً: وصايا تربوية من الإمام مالك (179هـ) للخليفة هارون الرشيد:**

وترتكز الوصايا التعليمية على ضرورة تعلم القرآن والسنة النبوية الشريفة، فهما نقاط التقاء بين الموصي والموصى إليه، كما أن الالتزام بما فيهما منجاة في الدنيا والآخرة، فرجال الدين يعتنون بمثل هذه الوصايا وتقديمها للخلفاء" فإن صدرت الوصايا من الخلفاء إلى مؤدبي أبنائهم لأجل تعريفهم بالدين وتنقيفهم بالثقافة الإسلامية، فقد صدرت وصايا مماثلة لهذه من بعض رجال الدين أو بعض الوعاظ للخلفاء أنفسهم للعناية بهذا الجانب عند تأديبهم للأبناء" (الفريخ، 166، 1988).

ولعل من أهم هذه الوصايا تلك التي قدمها الإمام مالك إلى الرشيد، إذ يقول:

"أدبٌ ولَدَك، ومَن وليت أمره على خُلُقك وأدبك، حتى يتأدبوا على ما أنت عليه، فيكونوا لك عوناً على طاعة الله. بلغني عن ابن مسعود (رضي الله عنه) أنه قال: كلُّ مؤدبٍ يحبُّ أن يؤخذ بأدبه، وإن أدب الله هو القرآن" (صقر، 1981، ص 133)

تظهر أهمية الوصية في أنها تصدر من إمام له قيمته الدينية الرفيعة، وأنها تُقدِّم للخليفة وتُقدِّم لطرق التربية الحقة، فجاءت وصيته أقرب ما تكون إلى الوصية الخاصة التي لا تصلح في مجملها إلا لمثل مكانة الخليفة في تأديب أولاده ومن ينولى أمرهم، فقد طالبه بأن تكون يده مبسوطه عليهم بأخلاقه الحسنة، فهو بها يتعلم تقوى الله وخشيته في عباده وولده وورثته في الحكم والخلافة، فالطالب يأخذ بصفات أستاذه،

### والمواظ

يلمح القارئ لتلك الوصايا أن الخليفة هارون الرشيد يختبئ وراء هذه الوصايا وتلك المواظ، فهو الذي يبحث عن يوصيه ويذكره، إذ نجده متمسكاً بسماع الوعاظ ومن يرشده إلى الطريق، وكأنه يستشعر أن السياسة والسلطة تنسيه الآخرة والتفكير بها، وتحرفه في بعض الأحيان عن المسار المستقيم، كما أن الخليفة هارون الرشيد بحنكته وذكائه استطاع أن يصل إلى مرحلة من التمييز بين أولئك الوعاظ الذين ينشدون إلى رنين الدراهم من وراء وعظهم، أو أن هدفهم الوعظ لوجه الله وصلاح البشرية، وخاصة رأس الهرم السياسي (الخليفة). وتبدو شخصية الوعاظ شخصية أساسية في عصر الخلفاء العباسيين، وظل تعامل الخلفاء معهم ملاذاً نفسياً وروحياً، لا تحكمه به علاقات مادية نفعية، فمكانة الوعاظ تأكدت في العصور القديمة، وظلت فيما بعد تعكس أفكارها ومواقفها، وعلاقة الخليفة بالوعاظ علاقة توصل الأول بالثاني من أجل القيام بالتغيير الفكري والنفسي لمصلحة الرعية وتحقيق الراحة للراعي.

وقد كان بعض الخلفاء يتخذون لأنفسهم واعظاً خاصاً يستدعيه في أصعب المواقف، فكان الخليفة هارون الرشيد يأنس بأبي العباس محمد بن صبيح العجلي المعروف بابن السماك (334هـ)، وقد حظي عنده بمكانة مرموقة رفيعة، فيسعى إليه في طلب الموعدة والنصيحة. (السيوطي، 2013، 460)

إن الخليفة هارون الرشيد يبحث عن صدقه الرأي والنصيحة في أسئلته الحائرة في رخانه وشدته، بل إنه يريد الإيجاز والبلاغة وحسن النصيحة، مما يوحي بالمسؤولية التي تحيط منصبه، يقول للمصور بن عمار: "عظني وأجز، فقال: يا أمير المؤمنين: هل أحد أحب إليك من نفسك؟ قال: لا، قال: إن أردت أن لا تسئ لمن تحب فافعل" (الإبشيهي، 1964، 77/2).

ويتصف الوعاظ (ابن عمار) ببعد نظره وسرعة بديهته وذكائه وحسن تعليقه؛ فأفعال الإنسان باختلافها تسئ لصاحبها؛ فماذا إن كان الخليفة هو المعني؟ وقد عظمت مسؤوليته وارتفع شأنها، وشملت عدداً لا يحصر من البشر، ولذلك استعان بالنداء، والاستفهام، والحوار، والتنويع في الجمل بين الخبرية والانتشائية؛ في إيجاز واضح وعبارة سهلة رقيقة الألفاظ عميقة الدلالة، وقد ناسبت هذه الأدوات الموقف، وراعت حال الخليفة. ولعلّ القلق والتوجس والتخوف جعله (الخليفة هارون الرشيد) في حالة من إنشغال الفكر والبال، فلا يهدأ له ذهن حتى يجد الوعاظ الحق، فكان الفضيل بن عياض يمثل هذا

ويطبقها منها حياة فكيف إذا كان الخليفة، والرعية، كذلك، ممن يتولى الخليفة أمرهم إن رأته يتقي الله جعلت التقوى نصب عينها دائماً، كما أن هؤلاء يرفعون الخليفة إن أخطأ ويصوبون مساره.

إنها دعوة ليكون الخليفة قدوة في القول والعمل وحسن التصرف؛ وذلك بالتزام السنن التي تحلى بها كل من يخاف الله، فإذا رأى الطالب أيضاً حسن الخلق ممن ينتهجها أحبها قبل أن يأمرهم بها.

ويعتمد الإمام مالك في وصيته على الإيجاز في فكرته، وغرس القيم فجميع القيم الرفيعة بمثابة روافد تصب في معين واحد هو القرآن والحديث النبوي، الذي يؤدب الملوك وورثتهم ورعيته، وهو ما يليق بالخلافة، ويذكر ابن مسعود اسماً لأنه رجل معروف بوقاره وتدينه، فلا يصدر منه شيء إلا ويخفي من ورائه مخافة الله وخشيته؛ فالله إن أراد أن يهذب أحدهم جعل خلقه القرآن العظيم.

كما وصّى الإمام مالك الخليفة هارون لرشيد وصية ضمن وصايا المشهورة، التي لا تخرج عن حدود الوصية السابقة في تركيزها على القيم الدينية في التربية، ومن ذلك "إذا علمت علماً فليُر عليك أثره، وليُر فيك سمته، وتعلم للذي تعلمه، وتعلم له السكينة والحلم والوقار. بلغني عن النبي - صلى الله عليه وسلم - "العلماء ورثة الأنبياء" (صقر، 1981، 134).

ترتكز الوصية على القيم الأخلاقية التي تنعكس على المتعلم، ومدى استفادته من العلم من النظرية إلى التطبيق، فهو الخليفة والمعلم قدوة للناس، والأخلاق التي يطالب الآخرين بالالتزام بها لا بد أن تكون انعكاساً حقيقياً لأعماله، فينشد التقوى والصلاح في تصرفاته. ثم يأتي بيان قيمة العلماء؛ فهم في علو الشأن؛ وفي منزلة الأتقياء الأتقياء الأنبياء كما أشار إلى ذلك عليه السلام.

والإمام مالك في وصاياها للرشيد لم يكن متزلفاً، ولذلك ظهرت صيغ أفعال الأمر والنهي، كما دعم قوله بالحديث النبوي كدليل على ما ذهب إليه من نصائح، وقد بدا التناص منسجماً مع النص، والتناص "تداخل نصوص أدبية مختارة قديمة وحديثة، شعراً ونثراً مع النص الأصلي. إذ تكون منسجمة ومتسقة ودالة قدر الإمكان على الفكرة، أو يعلنها المؤلف أو الحالة التي يجسدها ويتحدث عنها" (الزعيبي، 1993، ص 43)؛ مما أضفى عليه ارتفاعاً وثراءً؛ فالحديث مصدر التشريع الثاني، واشتمل على فضائل وسلوكيات أخلاقية وقيم ومثل تتسجم والوصايا التي تحرص على تلك السمائل، كما وظف شخصيات دينية تراثية تحمل دلالات إيجابية وتفيض بالإيمان. **ثانياً: تمسك الخليفة هارون الرشيد بسماع الوصايا**

يَدْعَم ويساند المواقف الفكرية؛ ولذلك جاءت النصوص الشعرية مشحونة بطاقات تعبيرية متدفقة، فاستغلها أبو العتاهية.

وهكذا يبقى الخليفة بين الدنيا ومغرباتها ونعيمها الزائل وبين الآخرة ونعيمها الدائم، ولحظة الموت المفترق بين الطرفين، وقد توحى هذه الأبيات باختلال التوازن المالي والسوء في توزيع موارد الدولة. أو قد توحى بالظلم الاجتماعي؛ علماً بأن عصر الخليفة هارون الرشيد يوصف بالعروس، ولا تناقض، فحساسية الشاعر جعلته يظهر هنا شعوراً مقترناً بسلامة السلوك، كما يخفي من وراء أبيات شعره دعوة إلى رفع الظلم والحيث بكل أشكاله. وينصب الشاعر نفسه مدافعاً عن حقوق المستلبين داخل المجتمع، وهكذا فإنَّ الحقائق التي يبرزها النص تشي بشمولية الموت.

والملاحظ أن النفس الشعري في الوصية الشعرية بدأ بعيد النظر حكماً تأملياً انفعالياً، لا يقف عند اللحظة الزاهنة بل يتحدث عن الغيبيات التي تتساق في الموروث الديني؛ وذلك لإيمان الشاعر أن الإنسان مفارق، والخليفة في قمة قوته الجسدية وسعادته في الحكم والسلطة، ومثل هذه الوصايا تأتي لتنظيم حياة أهل الجاه والسلطان وتعيد التوازن في حياتهم. وأبو العتاهية في شعره عادة يصرّ على إسداء النصح والموعظة والتذكير بعالم الموت، ويوحى هذا الأمر أنه دائم التفكير والتأمل فيه.

وقد خط أبو العتاهية شعراً، وقرأه الخليفة هارون الرشيد، وهو لا يخرج عن شعره السابق، إذ يقول:

هل أنت مُعْتَبَرٌ بمن خربت منه، غَدَاةَ قَضَى، دساكره  
وومن أدلّ الدهر مصرعه فتبرأت منه عشائره

وومن خلّت منه أسرتهُ وومن خلت منه منابره

أين الملوك وأين جندهم؟ صاروا مصيراً أنت صائره

يا مؤثر الدنيا وطالبها والمستعد لمن يفاخره

نلّ ما بدا لك أن تتال من الدنيا فإن الموت آخره

(أبو العتاهية، 1986، ص 206، والمسعودي، 1988،

ج3/367)

وسعة الصدر التي يتلقاها الوعاظ تجعلهم يصدّقون الخليفة هارون الرشيد في الوصية، ويكون الحوار بينهم مدعاة لمثل هذه المقارنة بين الحياة الدنيا ومتاعها والآخرة وديمومتها، وهنا يظهر مرة أخرى الفضيل بن عياض، فالخليفة، أيضاً، دائم التكدير والتغيب والتذكير بما يجب أن يقال، والغريب أنه يعمد إلى هذا الأمر قاصداً نفسه، يقول: "ما أزهك. فقال الفضيل بن عياض: أنت أزهّد مني، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنني أزهّد في الدنيا، وأنت تزهّد في الآخرة، والدنيا فانيةٌ والآخرة باقيةٌ" (ابن خلكان، 1969، ج4/48).

الرجل، فالخليفة يعرض عليه المال ليسدّ دينه، فيقول: "سبحان الله! أنا دللتك على سبيل الرشاد، وأنت تكافنتي بمثل هذا، سلمك الله ووقفك، ثم صمت، فلم يكلمنا. فخرجنا من عنده، فقال هارون: إذا دللتني على رجل فدلتني على مثل هذا". (الإبشيهي، 1، 80/1964)، فإذا ما اطمأن الخليفة ووصل إلى الإقتناع من الفضيل، استحضر رأيه فيما سمع.

**ثالثاً: الخليفة هارون الرشيد بين الحياة الآجلة والحياة العاجلة**

وقد ظهرت المواعظ والوصايا شعراً ونثراً في بلاط الخليفة العباسي هارون الرشيد، التي تسعى في جملتها إلى إيقاظ حسّ الخليفة الذي يرفل في النعيم في حين يريد الشاعر أن يذكره بأن هنالك من يعيش في سراديب الفقر وعذاباته اليومية، فقرع جرس التذكير من الأهمية بمكان حتى لا تقوم ثورة الجياح المغيبين عن ساحة السلطة، وقد أسهم هؤلاء الوعاظ في إزاحة اللثام عن الخلل في توزيع الثروة والمال، وتشتمل مواعظهم على إشارات عديدة توحى بظلم الحكام، وتغمز من طرف خفي بالوضع الطبقي في أهل ذلك الزمان.

ومن ذلك ما يرد حول أبيات وصف فيها أبو العتاهية (210هـ) النعيم الذي يلف قصر الخليفة، وكثرة الطعام والشراب يقول بعد أن طلب الخليفة أن يصف ما هو فيه من العيش والنعيم:

عش ما بدا لك سالمًا في ظل شاهقة القصور

يسعى عليك بما اشتهدت لدى الرّواح أو البكور

فإذا النفوس تقفعت في ظل حشجة الصدور

فهناك تعلمُ موقناً ما كنت إلا في غرور (أبو العتاهية،

1986، ص 163، وابن الأثير، 1995، ج5/358-359).

فأبيات الشعر إسقاط واع من الشاعر لحياة أهل السلطة الذين يرفلون في طيب العيش وسعادة الحياة، وجمال العمران وهدهوء بال ورخاء، ولكن الموت يظهر حاملاً التغيير والتغيب والتذكير، وهنا يتحول المشهد من نعيم وحضور إلى موت وغياب؛ فالشاعر كما يظهر يكدّر أجواء الخليفة حينما يؤكد أن الحياة متاع زائل بصبغة دينية، وهو يسخر من العابثين، الذين لا تنتهي شهواتهم عند حدّ، ويدعوهم إلى الزهد والتعسف. وقد يكون هذا الأمر من منطلق التذكير حتى لا ينسى الخليفة فالحياة الرغيدة تنسى؛ فتميزه على الكل وارتفاع شأنه يجب ألا ينسيه أن يكون في منزلة مرتفعة في آخرته، وكحال الوصايا والمواعظ النثرية في أسلوبها، وما تتصف بهما من سمات نجدها في المواعظ الشعرية؛ فهي تتصف بالسهولة ليسهل حفظها. وقد استمد من القرآن صورة غيبية ترتبط بالحياة الآجلة. وبما أن الرافد القرآني غني؛ فقد استقى منه الشعراء ما

إلى الماضي". (عيد، 1985، ص 201).

إن المواعظ في تأكيد دائم على العدل والسلم والأمن، فالخشية من تردّي حال الناس دفع الوعاظ إلى العناية بقضية الفقر في مقابل الغنى، والإفلاس الروحي في مقابل الغنى المادي، فالحياة الصالحة ليست إلا مزيجاً يأتلف من العدالة الاجتماعية والأمن المادي والصلاح السياسي.

#### خامساً: تجاوز الحدود في التعامل مع الخليفة

وبما أن الخليفة هارون الرشيد حاله كبقية البشر يقترب الذنب ويلجأ للتوبة، فكان لابد من حكيمة يُزجى له النصيحة، إلا أن الناصح هنا قد يتجاوز الحدود في التعامل مع الخليفة، فمن آداب التعامل مع السلطان احترامه وتقديره ومناداته بلقبه دون إخلال إجلالاً، فيذكر أن أحدهم اعترض له قائلاً: "يا هارون، اتق الله"، فما كان منه إلا أن أمر باحتجاز هذا الرجل، ثم أمر أن يُطعم هذا الرجل من طعامه، ثم دعا به فقال: "يا هذا أنصفتني في المخاطبة والمسألة. قال: ذاك أقل ما يجب لك. قال: فأخبرني، أنا شرّ وأخبث أم فرعون؟ قال: بل فرعون: قال: "أنا ريكم الأعلى" وقال: "ما علمت لكم من إله غيري". قال: صدقت. فأخبرني: من خير، أنت أم موسى بن عمران؟ قال: موسى كليم الله وصفيّه، اصطنعه لنفسه... قال: صدقت. أمّا تعلم أنه لما بعثه وأخاه إلى فرعون قال لهما: "قولوا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى"... وهو في عتوه وجبروته على ما قد علمت؛ وأنت جنّتي وأنا بهذه الحالة التي تعلم: أودّي أكثر فرائض الله عليّ، لا أعيد أحداً سواه، أفف عند أكبر حدوده وأمره ونهيه، فوعظتني بأعظ الألفاظ وأشنعها وأخشن الكلام وأفظعه. فلا بأدب الله تأدّبت، ولا بأخلاق الصالحين أخذت..." (الطبري، 358/1966-359، وابن عبدبره، 165/1982،) لقد استطاع الخليفة أن يرد على قلة تهذيب هذا المتطفل على موائد الوعاظ، وأن يضع حداً لإساءة الأدب. بل إن تمادي هذا الوعاظ في تصرفاته يوحي بحرية منحت لشخص ذلك الزمان حتى نجدهم يزدادون في تماديهم على السلطة.

والحق أن بُعد بعض الوعاظ عن الساسة والسياسة أمر طبيعي، وهؤلاء الوعاظ كانوا تعبيراً عن أمرين: صورة الحلم، فهو يتمنى أن يسود المجتمع العدل والتغيير، وهو صورة أخرى للواقع بتياراته الفكرية وتنوعها في عصره.

ومن هنا ظهرت صور مختلفة للوعاظ، بل بلغت ببعض الوعاظ ألا يجيبوا أمير المؤمنين وقد طُلبت النصيحة منهم؛ كهذا العابد المعتزل في جبال تهامة، فالخليفة يُلح عليه في الطلب، يقول: "أوصني ومُرني بما شئت، فواد لا عصيتك! فسكت عنه ولم يرد عليه جواباً، فخرّج عنه هارون الرشيد"

إذاً فإن الخليفة هارون الرشيد لم يكن يتظاهر بالورع تحبباً إلى الرعية وتغطية لتجاوزه التقيد ببعض تعاليم الدين. فالرشيد شخصية بعيدة عن هذا النمط من التصرف، تأبى التكلف والمخادعة والتستتر. كان الرشيد عفويّاً في أقواله وأعماله، بعيداً عن التخطيط الماكر وعن المكائد والدسائس، لا يخاف أحداً في هذه الدنيا، يعرف أن كل من فيها يخافه. فمظاهر الورع والاستكانة إلى الوعظ لم تكن عنده سوى ردة فعل عفوية للإحساس بالذنب" (ضناوي، 2001، ج 3/ 629)؛ والإحساس بالذنب إحساس طبيعي يرتبط بالبشر جميعهم.

#### رابعاً: ضرب الأمثلة بخلفاء سابقين

ولعل الوصايا ترتبط بضرب المثل للتوضيح، وذلك بمواقف الخلفاء السابقين، كما تحفل بالإشارات التاريخية قوية الانفتاح على اللحظة الراهنة، فالقصص التي تلتقي وتتفاعل تظل الأصداء بينها متجاوبة، وقد يلح للمثل تلميحاً، وقد تُسرد تلك الأمثلة القصصية التاريخية لتغوص على مكامن الشعور، فهي وثيقة الصلة بالإنسان، وأوضح دلالة على الفكرة، وأعمق مغزى للغرض، فالفضيل بن عياض يخبر الخليفة هارون الرشيد أن عمر بن عبد العزيز طلب النصيحة حين ولي الخلافة فقالوا له: "إن أردت النجاة غداً من عذاب الله، فصم عن الدنيا، وليكن إفطارك فيها الموت" وقال له آخر: "إن أردت النجاة غداً من عذاب الله، فليكن كبير المسلمين لك أباً، وأوسطهم لك أخاً، وأصغرهم لك ولداً، فبرّ أباك وارحم أخاك، وتحنن على ولدك" وقال له ثالث: "إن أردت النجاة من عذاب الله فأحب المسلمين ما تحبه لنفسك وكره لهم ما تكره لنفسك" (الإبشيهي، 1964، ج 1/ 79-81).

وقد كان السرد التاريخي ينطلق من التسليم بأن ماجرى من مواعظ في ذلك الزمان قد تحقق فعلاً، وإن نزوع الوعاظ للأمثلة التاريخية هدفه فرض التفكير وبيان صدق الأوليين، فهو يختار لقطات حية من الوقائع التاريخية، ولا يتقلها بأمر أخرى من الجزئيات والتفاصيل التي تصرف عن العبرة من تلك القصة.

إن الخليفة هارون الرشيد يُعنى عليه ويشند فيما بعد بكاؤه حينما يخبره عياض: "يا أمير المؤمنين، إن جدك العباس عمّ النبي صلى الله عليه وسلم جاء فقال: يا رسول الله، أمرني على إمارة. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا عم، نفسٌ تُحبها، خيرٌ من إمارةٍ لا تُحصىها، وإن الإمارة حسرةٌ وندامةٌ يوم القيامة فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل" (الإبشيهي، 1964، ج 1/ 79-81).

إن حضور التاريخ واسلتهام حوادثه وشخصياته يخلق تداخلاً بين الحركة الزمنية؛ فالماضي يظهر بكل إشارات وأحداثه على الحاضر، "فيما يشبه تراكباً تاريخياً يومئ الحاضر



أنك واقفٌ غداً بين يدي الله ربك، ثم مصروفٌ إلى إحدى منزلتين لا تالته لهما: جنةٌ أو نارُه" (الطبري، 1966، 357/8).

سادساً: محاولة حاشية الخليفة هارون الرشيد التزيين له:

يقول الوردی: "الواقع أن الوعاظ والطغاة من نوع واحد هؤلاء يظلمون الناس بأعمالهم، وأولئك يظلمونهم بأقوالهم، فلو أن الواعظين كرسوا خطبهم الرنانة على توالي العصور في مكافحة الطغاة وإظهار عيوبهم لصار البشر على غير ما هم عليه الآن" (الوردی، 1995، 48).

ومن هنا حاول ابن الربيع (وزير الخليفة هارون الرشيد) التدخّل؛ ليؤكد أن الخليفة ليس كبقية الناس، وأنه ذاهب حتماً إلى الجنة، فأقبل ابن السماك قائلاً: "إن هذا ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم. فاتق الله وانظر لنفسك" (الطبري، 1966، 357/8)، وابن الربيع في موطن سابق يعاتب أبا العتاهية حين ينغص على الخليفة بأبيات شعر قاسية يصف فيها الحياة الدنيا الغرور يقول الخليفة هارون الرشيد: "دعه، فإنه رآنا في عمى، فكره أن يزيدنا" (الطبري، 1966، 341/5) و(ابن الأثير، 1995، 359/5).

وهناك ممن يحيطون بالخليفة يطلبون من ابن السماك الواعظ أن يرفق بأمر المؤمنين: "فقال دعه، فليمت حتى يقال: خليفة الله مات من مخافة الله" (ابن تغري بردي، 1963، 111/2).

ولما أبكاه الفضيل بن عياض، وتدخّل ابن الربيع بأن يرفق بأمر المؤمنين، فيقول الفضيل مقالة فيها تحذير لكل من ينمق الحكام قال: يا ابن الربيع، قتلته أنت وأصحابك، وارفق به أنا" (الإبشيهي، 1964، 80).

سابعاً: ردة فعل الخليفة هارون الرشيد بعد سماع الوصايا يكون الخليفة الرشيد في حالة من الهلع والخوف والإغماء أو البكاء الشديد بعد سماعه لتلك الوصايا والمواعظ؛ فهي تحدث أثراً في نفسه مؤلماً وعظيماً، وتعكس هذه المفارقة في الشخصية: الضعف بعد القوة، والفقر بعد السيطرة والملك، وكذلك فهو بها يتجاوز عالم المتعة الذي يحياه الخليفة إلى عالم التفكير في الموت وما بعد الموت.

فالواعظ الحقيقي هو الذي يستطيع أن يكون قادراً على إصلاح الآخرين وإحداث أثر التغيير في نفوسهم، والنفذ في مكنوناتهم، واستقراء خباياها ثم يعرض فكرته بالعبارة البليغة لإحداث ذلك التغيير، وتُظهر الكلمة، هنا، تأثيراً أسمى من حدّ السيف، فقد يخفى على الإنسان إدراك قيمة ما يحيط به، ويحتاج إلى من يزيل الغشاوة عن عينيه. وتأتي قيمة مثل هذه

فعاتب الحاضرون العابد إذ الأجدى به أن أمره بتقوى الله والإحسان إلى رعيته، إلا أن العابد أجاب: "إني أعظمتُ الله أن يكونَ يأمره فيعصيه، وأمره أنا فيطيعني" (ابن عبد ربه، 1982، ج3/170).

وأحسن الوصايا تلك التي تخرج من التقي الفاضل النقي الصادق، الذي تخرج كلمته من القلب، ومصدرها القرآن تحثُ على العدل وتأمّر بالمعروف، إن الخليفة هارون الرشيد يستحثُّ أهل العلم بالقرآن ليرشدوه حتى لا يضلّ، وهنا يبرز ابن السماك الواعظ الناصح حينما يرى أن خير الواعظين القرآن، يقول: "كفى بالقرآن واعظاً، قال: "بسم الله الرحمن الرحيم \* ويلٌ للمُطَفِّفِينَ \* الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ \* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ \* أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ \* لِيَوْمٍ عَظِيمٍ \* يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (سورة المطففين، 1-6) "هذا يا أمير المؤمنين، وعيدٌ لمن طَفَّفَ في الكيل، فما ظنُّك بمن أخذَهُ كلُّهُ؟" (ابن عبد ربه، 1982، 164/3).

لقد حرص الوعاظ على النص القرآني لما له من دور في التأثير والتذكير وإحداث المشاركة الوجدانية المتوقعة والإقناع، ولإضفاء المصدقية، كما من الوسائل التي تجذب المستمعين، فالواعظ بالاستعانة به يقيم حواراً ودياً يضيفه، إذ يشير في أبسط دلالاته إلى نوع من العلاقة الروحية الحميمة التي تجمع الواعظ بالمستمع لما يتضمنه من إشارات تتعلق بمعاني السعادة الأبدية.

وقد حرص الوعاظ على النص القرآني، ولا يخفي ما في ذلك من حسن عزف على الحالة النفسية، حيث تكون العلاقة قائمة بين النص الأول: إقامة العدل في الأرض في الدلالة العامة، والنص الثاني: التحذير من المطففين الذين ينتظرهم العذاب العظيم في الآية القرآنية.

وطلب الخليفة هارون الرشيد منه موعظة أخرى، فقال: "عظني، قال كفى بالقرآن واعظاً يقول تبارك وتعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ) (سورة الفجر 6-8) إلى قوله (فصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبَالْمُرْصَادِ) (سورة الفجر 6-14). (ابن عبد ربه، 1982، 150/3).

والملاحظ بالنظر إلى الآيات القرآنية أن الوعاظ كانوا يوردون الآية كما هي بنصها، كما سبقت بغرض؛ وذلك لتخدم فكرة النص وتقويه ولتدعيم ما يذهبون إليه.

وقد يبدو طبيعياً أن الوعاظ في عملية تذكير دائمة للخليفة، فالموت والآخرة مشهدان دائماً الحضور بشكل مستمر، فالتذكير بهما ينشر الرحمة والعدل والتحذير، يقول ابن السماك: "واعلم

(الجرجاني، د.ت، ص108)

### خامساً: مقارنة بين وصايا الخليفة هارون الرشيد ووصايا الوعاظ ومواظهم:

تنوعت الوصايا والمواظ التي وجهها الوعاظ للخليفة هارون الرشيد؛ فظهرت نثرية في مجملها، كما وردت شعراً، وارتكزت على الحث على تقوى الله، والقيم الإنسانية والمثل العليا، وتعدت تلك الوصايا علامة واضحة على سمو الأخلاق وإيجابية ذلك العصر؛ فهي تتبع من القلب، وتحرص على ديمومة السلطة وتراعي العدل أساس الملك.

وقد حرصوا الوعاظ على ألا يكون كلامهم خالياً من الاستشهاد؛ لما له من تأثير واضح في التذكير والترخيص على الحالة النفسية، كما أنه يشتمل على تأكيد واضح على أحقية الخلفاء العباسيين في السلطة.

كما اهتم الخليفة هارون الرشيد بإسداء النصيحة بالوصايا؛ حرصاً منه على القيادة والزعامة والسلطة، وكانت ترتبط بمن حوله من الجلساء الأدباء، والعلماء المؤيدين، وحرصت في مضامينها على جملة من القضايا التي توضح القواعد التي يجب أن يتمثلها كل من يخالط الخليفة، أو يجلس في مجالسه؛ فهي ترتبط بأمر الدنيا وأهل السلطة.

أما فنياً فقد تكررت النواهي والأوامر؛ وذلك لإرضاء السلطة إقراراً منها أنها مُجابهة الطلب، ولا تخلو تلك الوصايا من النداء، كما كانت لغتها واضحة ومنسجمة مع المضمون، وبعيدة عن التعقيد والإغراب والتكلف؛ حتى تحدث قدراً كبيراً من التأثير في المخاطب.

### الخاتمة:

يتضح من الوصايا والمواظ السابقة الحرية التي مُنحت في عصر الخليفة هارون الرشيد، وهذا جعله يستمع للجميع؛ وكانت لنصائهم موضع الاحترام والتقدير دون وجل من الوعاظ؛ مما أظهر صورة من التواصل بين الحاكم والمحكوم في الشؤون الدينية و السياسية.

وقد اشتملت على التذكير بالحساب والموت والإعداد له بمحاسبة النفس والتسابق إلى طاعة الله. كما جاءت نثرية وشعرية، ويلحظ أن الخليفة كان يسعى لسماعها، ويتأثر بها، ويختار من يستحق من الوعاظ أن يكون قريباً منه.

أما الخليفة هارون الرشيد فقد كان في وصاياه لأهل العلم معترفاً بعلمه، قادراً على توجيه دفة الحياة السياسية والعلمية مما كان له عظيم الأثر على استقرار الحياة في ظل هذا التواصل مع النابهين وأصحاب العقول.

ولعل الملاحظ على المواظ والوصايا أسلوبياً: سهولة

المواظ التي تتصفت بعمق العبارة وفصاحة اللفظ وقوة المثل وتأثيرها الشديد على السامع؛ لأن الذي يتكلم بها يُعرف ببعده عن التملق لأهل الجاه والسلطان، كما أنه عالم يتحكم به الخوف من الله ومصالحة الأمة والخليفة؛ فهو لا يتغاضى عن الحقيقة إرضاءً للسامع.

ومما يُذكر في كتب التاريخ حول غزارة دمع الخليفة هارون الرشيد حين الموعظة على لسان منصور بن عمار الواعظ: "ما رأيت أغزر دمعاً عند الذكر، من ثلاثة: الفضيل بن عياض، وأبي عبد الرحمن الزاهد، والخليفة هارون الرشيد" (البغدادي، ج14/8)، ويؤكد الفكرة نفسها الأصفهاني: "كانَ الرَّشِيدُ أَغْزَرَ النَّاسِ دُمُوعاً فِي وَقْتِ المُوعِظَةِ" (الأصفهاني، 4، 1982/35).

ومن الأمثلة الدالة التي تعكس ما خُفي من مشاعر حقيقية نبيلة للواعظ الحق، كما تشي بالصراع الخفي الذي يعترى أصحاب السلطة، وتُظهر عبء الخلافة الذي لا يدركه إلا حكيم مقالة ابن السّمَاك للرشيد" روي أنّ ابن السّمَاك دخلَ على الخليفة هارون الرشيد يوماً فاستقى، فأتى بكوزٍ فلما أخذه قال: على رسلك يا أمير المؤمنين لو مُنعت هذه الشربة بكم تشتريها؟ قال: بنصف ملكي قال: اشرب هناك الله تعالى. قال: أسألك لو مُنعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتري خروجها؟ قال: بجميع ملكي. قال: إن ملكاً قيمته شربة ماء وبولة لجدير أن لا ينافس فيه فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً" (ابن الأثير، 1995، ج5/358، ابن كثير، 10/221، والسيوطي، 2013، 468)، كما توحى بمن يحيطون بالخليفة من أصحاب النظر الثاقب؛ الذين يستثمرون كل ما يحيط بهم، ويوظفونه لخدمة مواظتهم؛ ففي هذه الموعظة ذكر ابن السّمَاك الماء؛ للتحذير من شهوات الدنيا.

وبحيلنا الخليفة هارون الرشيد إلى الموعظة حينما طلبها من شيبان، إذ يقول: عطني، قال: لا تصحب من يخوفك حتى يدركك الأمن خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى يدركك الخوف، فقال الخليفة هارون الرشيد: فسر لي هذا، قال: من يقول لك: أنت مسؤول عن الرعية فاتق الله أنصح لك ممن يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم وأنتم قرابة نبيكم صلى الله عليه وسلم" (السيوطي، 468، 2013)، وقد أدت المقابلة إلى التهويل والتحذير والتنبيه ممن يحيطون به من حاشية مترلفة تزلقه إلى الهاوية، ومن يقدمون الوعظ للخليفة؛ بغية تجنيبه المزالق.، ولا تنحصر قيمة الأضداد اللغوية في جانب الدلالة المفردة في الكشف عن القدرة اللغوية، فإنها تتعدى إلى إظهار الأبعاد النفسية المتوترة وتصويرها في أدق حالاتها، فالصورة المبنية على الحركة القائمة بين المتناقضات، هي ذات سعة وعمق داخلي؛ وذلك بما تتيحه اللغة من مترادفات وتضاد وتعاكس"

والرقة نجد زهداً في التعبير دون قصد إلى التصوير البياني إلا ما كان ضرورياً لخدمة الموضوع وتجليه المعنى.

الألفاظ وبساطة التراكيب؛ فعباراتها سائغة مأنوسة، وتصدر تلك الوصايا والمواعظ عن أسلوب مرسل برئ من كثرة عناصر الزخرفة والصنعة، وإضافة إلى سهولة العبارات

## المصادر والمراجع

- تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، مصر.  
ابن الطقطقي، م. (د.ت) الفخري في الآداب السلطانية، دار صادر، بيروت.  
العبادي، أ. (1975). في التاريخ العباسي والأندلسي، ط1، دار النهضة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.  
أبو العتاهية، إ. (1986). ديوان أبي العتاهية، ط1، داربيروت للطباعة والنشر، بيروت.  
عيد، ر. (1985). لغة الشعر، منشأة المعارف، الإسكندرية.  
الفريخ، س. (1988). الوصايا في الأدب العربي القديم، ط1، الكويت: مكتبة المعلاء، الكويت.  
ابن قتيبة، ع. (1909). الإمامة والسياسة، مكتبة عبد العال، مصر.  
ابن كثير، إ. (2003). البداية والنهاية، تحقيق: عبدالله عبد المحسن التركي. دار عالم الكتب، بيروت.  
الماوردي، ع. (1978). أدب الدنيا والدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.  
المسعودي، ع. (1988). مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين، دار الفكر، بيروت.  
مناح، ه. (1981). النثر في العصر الجاهلي، ط1، دار الفكر العربي، بيروت.  
المصرف، س. (1999). وصايا الآباء إلى أولادهم عبر عشرة قرون، ط1، دار الكتب، بغداد.  
ابن منظور، ج. (1993). لسان العرب، تحقيق: إحسان عباس، ط3، دار صادر، بيروت.  
ابن منقذ، أ. لباب الآداب، تحقيق: أحمد محمد شاکر، ط1، مكتبة السنة، القاهرة.  
النحوي، ع. (1998). أدب الوصايا والمواعظ، دار النحوي، الرياض.  
ابن النديم، م. (د.ت). الفهرست، مكتبة خياط، بيروت.  
الوردي، ع. (1995). وعاظ السلاطين، ط2، دار كوفان، لندن.

- الإبشيبي: ش. المستطرف في كل فن مستظرف، المطبعة التجارية الكبرى، مصر.  
ابن الأثير، ع. (1995). الكامل في التاريخ، دققه محمد يوسف الدقاق، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت.  
الأصفهاني، ع. (1982). الأغاني، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت.  
أنيس، إ. وآخرون. (1972). المعجم الوسيط، ط2، مجمع اللغة العربية، القاهرة.  
البغدادى، أ. تاريخ بغداد أو مدينة السلام، مكتبة الخانجي، مصر.  
ابن تغري بردي، (1963). النجوم الزاهرة، وزارة الإرشاد والثقافة القومي، القاهرة.  
الجرجاني، ع. (د.ت) دلائل الإعجاز، ط4، دار الفكر، دمشق.  
ابن خلدون، ع. (1993). المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت.  
ابن خلكان، ش. (1969). وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.  
أبوخليل، ش. (1996). هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الأرض، دار الفكر، دمشق.  
الدليمي، م. (1987). جمهرة وصايا العرب (وصايا العصر العباسي، ووصايا عرب الأندلس)، ط1، منشورات دار النضال، بيروت.  
الزعبى، أ. (1993). التناص نظرياً وتطبيقياً، مكتبة الكنتاني، إربد.  
السيوطي: ج. (2013). تاريخ الخلفاء، ط2، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر.  
صالح، م. (1994). فنون النثر في الأدب العباسي، ط1، وزارة الثقافة، عمان.  
ضناوي، س. (2001). موسوعة هارون الرشيد، ط1، دار صادر، بيروت.  
الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (1966). تاريخ الرسل والملوك،

## Sermons and Commandments in Harron Al-Rashid. Council (193) “Aesthetic Study”

*Fatima Al-Sarahneh\**

### ABSTRACT

Sermons and commandments are observed as a crucial style in Arabic prose. This literary style is the subsistence to be received among the ancient literary works as well as its deep correlation with past human lifestyle. This literary style could be initiated from the beginnings of human activities to reflect morals that became ripe throughout experience; and then they were established on a solid background of wisdom and contemplation.

Such sermons and commandments stem their importance from the interaction between their producers and the upstanding situations at that era. When attesting the relationship between the preachers and their rulers, sermons were composed by Harron Al-Rashid himself and his preachers.

Harron Al-Rashid carefully and seriously responded to such trustworthy advice which added prestige and dignity to positively influence his personality. In turn, this mature experience helped him to provide guidance and support to his people.

**Keywords:** Sermons, Commandments, Harron Al-Rashid.

---

\* Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Hashemite University, Jordan. Received on 08/02/2016 and Accepted for Publication on 24/04/2016.